المسلمون في أوربا :

قصص من الأندلس

— ٦ —

صانع النصر

المعتمد بن عباد

تأليف
الدكتور سعد اسماعيل شلبي

الناشر عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - بالقاهرة

البحر الأبيض المتوسط
الأندلس
المحيط الأطلسي

قصص من الأندلس

مقـــدمـــة

ولدى العزيز . . .

إنك تسمع كثيراً عن الحضارة التى تعيش فيها أوربا الآن . ولك أن تعتز بأن أجدادك العرب هم سبب هذه الحضـارة ؛ فقد ذهبوا إلى أوربا ســـنة ٩٢ هـ وأقاموا دولة الأندلس ـــ مكانها أسبانيا والبرتغـال الآن ـــ ومكثوا بهـا حوالى ٨٠٠ سنة فنقلوا إليهـا العلوم العربية . ونشروا فيهـا التقدم والعمران ، فاقتبست أوربا من هذه الحضارة . وجعلتها أساس نهضتها الحديثة .

ألا يستحق هؤلاء العرب أن تعرف تاريخهم . وما تضمن من أمجاد وبطولات ؟ !

هذا ما تجده فى « **قصص من الأندلس** »

ولمكتبة « عالم الكتب » ولصاحبيها الأستاذين :

« محمد طاهر ـــ ويوسف عبد الرحمن » الأثر المشكور فى نشر هـــذه المجموعة ، وتقديمها إليك فى هذه الصورة المشرقة .

ونسأل الله العون والتوفيق .

« المؤلف »

(١)

فِي زَمانٍ بَعِيدٍ مَضَى أَقَامَ الْمُسْلِمُونَ فى أُورُبَّا دَوْلَةً اسْمُهَا «الأَنْدَلُس» وَكانت هَذِهِ الدَّوْلَةُ فِى غايَةِ الْجَمَالِ وَالْعَظَمَةِ :

كلُّ ما تَتصَوَّرُ من أَلْوانِ الْجَمالِ وَمَظاهِرِ الْعَظَمةِ تَجِدُهُ فى الأندلسِ :

الأَنهـــارُ الْعذْبةُ ، وَالْمُدنُ الْفخمَةُ فِى الأَندلسِ ، الْحُقولُ الْوَاسِعةُ ، والْمَصانِعُ الْمُتَنَوِّعةُ فِى الأَندَلس . .

كلُّ ما هُوَ عَظيمٌ أَدخلَهُ الْمُسْلمُون فِى هَذِهِ الدَّولةِ الْعَظيمَةِ . .

لِذَلِكَ كانَ أَهْلُ أُورُبَّا يَنْظرُونَ إليها وَهُمْ فِى غايةِ الدَّهْشةِ :

أَرَادُوا أَنْ يَصْنَعُوا مِثْلَها فَلمْ يَسْتَطِيعُوا ، حاَولوا أن يُقلِّدوها فَلم يَقدِرُوا .

* * *

وَنحن نَذْكرُ ذَلكَ بِكلِّ سُرورٍ ، وبكل فَخْرٍ ، وَبكلِّ اعْتِزَازٍ بِأَجْدَادِنا الْعَربِ الذين ملئوا الدُّنْيَا : عِلماً، وَفَنا ، وأدبا ، وَذَوقا .

وَمِثْلُ هَذِهِ الدولةِ — يَا بُنَىَّ — تَحْتَاجُ إلى عِنَايَةٍ حتى يَسْتَمِرَّ

تَقدُّمُها ، تَحْتاجُ إلَى حِراسَةٍ حَتى لاَ يَطْمَعُ فِيهاَ أَعْداؤُهاَ ، تَحْتاجُ إلى جُنُودٍ أَقْوِياء يُدافِعُونَ عَنْها بِالْأَرْواحِ وَالدِّماء ، فَقَدْ أَحاطَ بِهاَ الاعْداء ، وَطَمَعَ كلُّ جارٍ لَهاَ فِى الاسْتِيلاء عَلَيْهاَ .

* * *

وَكانَ أَشَدَّ أَعْداء الْمُسْلِمِينَ خَطَرًا عَلَيْهِمْ مَلِكٌ مُسْتَبِدٌّ اسْمُه « الْفُونْسُو » وَكانَ فَظًّا غَلِيظَ القلبِ ، لَا تَعْرِفُ الرَّحْمَةُ إلَى نَفسِه سَبِيلًا ، لَا يَطْمَئِنُّ لَهُ قَلْبٌ ، وَلَا تَهْدَأُ لَهُ نَفسٌ حَتى يَرَى الدِّمَاء تُسِيلُ مِنْ ضَحَاياهُ ، وَكانَ مِنَ السَّهلِ عَلَيْهِ أَنْ يَقتل كلَّ مَنْ يُخَالِفُ رَأْيَهُ ، أَوْ يَعْتَرِضُ طَرِيقَه حتَّى وَإِنْ كانَ مِنْ أَقْرَب الْمُقَرَّبِينَ عنده ، لِذَلِكَ سَمَّاهُ أَعْداؤُهُ ، وَأَصْدِقَاؤُه « الطَّاغِيَةَ » .

* * *

لَقَدْ صَمَّمَ هَذَا « الطَّاغِيَةُ » عَلَى أَنْ يَسْتَوْلِى عَلَى الْاَنْدَلسِ ، وَيَطْرُدَ الْمُسْلِمِينَ مِنها ، فَأَعَدَّ الْعُدَّةَ ، وَجَهَّزَ جَيْشًا كَبِيرًا لِهَذَا الْغَرَضِ ، وَساعَدَه عَدَدٌ كَبِير مِنْ مُلوكِ أُوربا .

الطاغية بسيفه وعليه ملامح الغلظة

(٢)

وَكانَ يَحْكُمُ الأندلسَ فِي ذَلِكَ الوقتِ عَدَدٌ مِنْ مُلوكِ المُسْلِمِين ، كلُّ مَلِكٍ يَتَوَلَّى ناحِيَةً مِنْها ، يُدافِعُ عَنْها ، وَيَحْمِيها ، وَيَتَصَرَّفُ فِيها كما يَشاءُ . وَأَعْظَمُ هؤُلاءِ المُلوكِ ، وَأَقْواهُمْ مَلِكٌ سَمَّى نَفْسَهُ « المُعْتَضِدَ » .

وَقَدْ بَنَى « المُعْتَضِدُ » أُسْطُولًا ضَخْمًا فِي البَحْرِ ، وَجَيْشًا كَبِيرًا فِي البَرِّ ، وَكانَ ماهِرًا فِي الحُرُوبِ ؛ يَشْتَرِكُ فِيها ، وَيَقُودُها بِنَفْسِهِ .

* * *

وكانَ لِلْمُعْتَضِدِ وَلَدٌ اسْمُهُ « المُعْتَمِدُ » وَقَدْ نشأَ هَذَا الأَمِيرُ بِجِوارِ وَالِدِهِ ، فَتَعَلَّمَ مِنْهُ الشَّجاعَةَ وَالبُطُولَةَ والإِقْدامَ ، فَما أَنْ شَبَّ وَتَرَعْرَعَ حَتَّى تَعَلَّم الفُروسِيَّةَ ، وَرُكوبَ الخَيْلِ . وَكثيرًا ما رَكِبَ فَرَسَهُ الأَدْهَمَ ، وَجَرَى بِهِ فِى سُرْعَةٍ — كأَنَّه يُسابِقُ الرِّيحَ — فإِذَا رَآهُ الرِّجالُ أُعْجِبُوا بِهِ ، وَإِذَا رَآهُ الأَطْفالُ هَلَّلُوا

وَصَفَّقُوا وَقَالُوا : الأَمِيرُ . . الأَمِير ! !

* * *

لَمْ يَكُنِ « الْمُعْتَمِدُ » فِي طُفُولَتِه لاهِيًا مُتْرَفًا كَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ ، بَلْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَلَامِحَ الشَّجَاعَةِ وَالْجِدِّ فِي صِبَاهُ ، وَقَدْ لَحَظَ وَالِدُهُ ذَلِكَ ، فَفَرِحَ بِهِ ، وحافَظَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ النَّبِيلَةِ ، فَكَبِرَتْ مَعَهُ ، فَهَذَا عَالِمٌ فَاضِلٌ يُدَرِّسُ له الْعِلْمَ ، وَهَذَا شَاعِرٌ مَاهِرٌ ، يُعَلِّمُه الشِّعْرَ ، وَذَلِكَ فَارِسٌ مُحَارِبٌ ، يُدَرِّبُهُ عَلَى الْفُرُوسِيَّةِ ، وَفنونِ الْقِتَالِ .

* * *

وَلَمَّا بَلَغَ الْمُعْتَمِدُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِن عُمْرِهِ عَيَّنَهُ وَالِدُهُ حاكِمًا على مَدِينَةِ « أُونبة » — وَهِيَ مَدِينَةٌ حَصِينَةٌ ، ضَيِّقَةُ الْمَسَالِكِ مُتَرَامِيَةُ الأَطْرَافِ ، يَمْتَدُّ جُزْءٌ مِنْهَا فَيُطِلُّ على الْبَحْرِ ، مَدِينَةٌ بَرِّيَّةٌ وَبَحْرِيَّة .

وَلَمْ يَصْنَعِ « الْمُعْتَضِدُ » ذٰلِكَ إِلَّا بَعْدَمَا عَرَفَ مَيْلَ الأَمِيرِ الصَّغِيرِ إِلَى الْفُرُوسِيَّةِ ، وَحُبَّه لِلشَّجَاعَةِ ، فَهَا هُوَ ذَا يَدْخُلُ حَلَقَاتِ الْمُبَارَزَةِ ، وَمَعَهُ سَيْفُهُ الْمُزَيَّنُ بِالْجَوَاهِرِ ، الْمُحَلَّى بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، يُبَارِزُ الْفُرْسَانَ على مَرْأى وَمَشْهَدٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالأَطْفَال ، فَيُحَرِّكُ سَيْفَهُ فِي مَهارَةٍ ، وَيُرَاوِغُ خَصْمَهُ فِي دَهَاءٍ ، وَيَنْقَضُّ عَلَيْهِ فِي خِفَّةٍ ؛ فَيُصَفِّقُ له جَمِيعُ الْمُشَاهِدِينَ .

سألوا والدَه مَرَّة : لِماذَا تُوَلِّى الأميرَ الْحُكْمَ فِي « أُنبَةَ » وَهوَ لا يَزَالُ صَغِيرَ السِّن ؟

فَأَجَابَ فى اعْتِزاز وإِعْجابٍ : — الْمُعْتَمِدُ أَشْجَعُ أَبْنَائِى ، وَإِنِّى أُعِدُّه لأَمْرٍ عَظِيم ، وَسَيَكونُ له — فِي الْمُسْتَقْبَلِ — شأنٌ خطِير ، وَقَدْ جَعَلْتُهُ حاكِمَ « أُونْبَةَ » لِيَتَدَرَّبَ على حَرْبِ الْبَرِّ ، وَعَلَى حَرْبِ الْبَحْرِ ، ويعرِفَ الْحَرْبَيْنِ فى وَقتٍ وَاحِد .

* * *

مبارزة بين المعتمد وفارس كبير

وَكُلَّما مَرَّتِ الْأيَّامُ زَادَ إعْجَابُ الرِّجَالِ بِهذَا الْفَتَى الصَّغِيرِ ، حتَّى صارَ مَثَارَ دَهْشَةِ الْجَمِيعِ ، وَكانَ الْأَطْفَالُ يَسأَلُ بعضُهم بَعْضا :

هَلْ يَسْتَطِيعُ الْأَمِيرُ « الْمُعْتَمِدُ » أَنْ يُبَارِزَ الطَّاغِيَةَ ؟ !

وإذَا بَارَزَهُ فَهَلْ يَسْتَطِيعُ أَن يَغْلِبَهُ ؟ !

لَيْتَه يَسْتَطِيع ذَلِكَ لِيُرِيحَنا ويريحَ الْأَنْدَلسَ مِنْ عَدُوِّها الْكَبِيرِ ! !

وَفى الْوَقْتِ نَفْسِهِ كَانَ شُيُوخُ الْأَنْدَلسِ وَرِجَالُهَا ، وَعَامَّةُ شَعْبِهَا ، يَعْقِدُونَ الْمَجَالِسَ ، وَيَتَحَدَّثُونَ فِيهَا عَنْ هذَا الطَّاغِيَةِ ، وَيُعَلِّقُونَ آمَالَهُمْ على « الْمُعْتَضِدِ » وَالِدِ الْمُعْتَمِدِ — وَفِي أَحدِ هَذه الْمَجَالِسِ وَقَفَ شَيْخٌ كَبِيرٌ اسْمُه « عِزُّ الدِّين » — وَكَانَتْ لَهُ منْزِلةٌ عَالِيَةٌ فِي الْأَنْدَلسِ يحترِمه النَّاسُ وَيَثِقون فيه — قَالَ :

أَيُّهَا النَّاسِ لَا تَيْئَسُوا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ، وَبَعْدَ الضِّيق

يَأْتى الْفَرَجُ — إن شاءَ اللهُ .

لقد رأَيْتُ حُلْماً فى اللَّيلَةِ الْماضِيَةِ يُبشِّر بالنصرِ ، رَأَيْتَ « الْفُونْسُو » وَمعهُ جُيوشٌ كثيرَةٌ تُهاجِمُ بِلادَنَا ، وَجُيوشُنَا تَفِرُّ أَمامهُ ، وَرَأَيْتُ النِّساءَ وَالرِّجالَ فِى خوْفٍ شَديدٍ ، وَشاهَدْتُ أَطْفالاً يَبْكُون ، وَفَجْأَةً ظَهَر من بين هؤُلاء الأَطْفالِ صَبِىٌّ صغيرٌ ، وبسُرْعَةٍ رَكِبَ حِصانَهُ وَأَخْرَجَ سَيْفَهُ مِنْ غِمْدِهِ ، وَأَخذ يُنادِى بِأَعْلَى صوْتِهِ :

« أَيُّها الناسُ ، لاَ تَفِرُّوا ، هاجِمُوا عَدوَّكُمْ ، وَالنَّصْرُ لَكُمْ » .

فلمَّا سمعَ النَّاسُ صوْتَهُ رَجَعوا إليْهِ ، وَالْتفُّوا حَولهُ ؛ فَاتَّجَه بِهِمْ نحْوَ الْمَعْركةِ ، ثمَّ ظَهر رِجالٌ مُلَثَّمون يَحْمِلُونَ السُّيُوفَ وَالْحِرابَ — سَمِعوا نِداءَهُ ، فَأَقْبلُوا أيضا ، وَانْدَفَعوا نحوَ الْمَعْرَكةِ ، وَكأَنَّهُمْ أُسودٌ هائِجةٌ تَهْجُم عَلَى فَرائِسِها ، وَالْجَمِيعُ يُرَدِّدُ بِصوْتٍ واحِدٍ : لبَّيكَ يَا مُعْتَمِدُ لَبَّيك يَا مَلِكَ الأَنْدَلُس .

فقاطعه واحدٌ مِنَ السامِعِينَ قائلاً :

يا شَيْخُ عِزِّ الدِّينِ ، أنصبر حتى يَكبَر المعتمد ؟ ! . .

اذهَبِ الآن إلى مولانا « الْمُعْتَضِدِ » وَحَدِّثْهُ عَنْ خَطَرِ « أَلْفُونسو » عَلَى الأندَلُسِ ، وَطُغْيانه فِي الْبِلَادِ . . . ، وَاطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُعْلِنَ الْحَربَ عَلَيْهِ ، وسوفَ يُرحِّبُ بهَذِه الْفِكرةِ إذا طَمْأنْتَهُ عَلَى أَنَّ الشَّعْب سَيَكون بِجوارِه ، إلى أَن يَتَحَقَّقَ النَّصْرُ — بِإذنِ الله .

* * *

ذَهَبَ الشَّيْخُ إلى قصرِ « الْمُعْتَضِدِ » واسْتأذَنَ فى الدُّخولِ عليهِ ؛ فأذِنَ له ؛ فَدَخَل ؛ فوجدَه فى مَجْلِسِهِ وَسطَ حَدِيقةِ قَصْرِهِ ، وحولهُ عدَدٌ من قادةِ الْجَيْشِ ، وَالْوُزراءِ والْكُتَّابِ وَقدْ زيَّنَ أَشْجَار الْحَدِيقةِ بِعَدَدٍ منْ رُؤُوسِ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ قَتلَهُمْ بِسَيْفِهِ وَسَط الْمَعَارِكِ الحامِيَةِ التى اشْترك فِيها بِنفْسِهِ .

الشيخ يستعطف الملك أن ينقذ البلاد من الفونسو

قال الشَّيْخُ : السَّلامُ عَلَى مَوْلانَا « الْمُعْتَضِدِ » ، السَّلامُ عَلَى الْقادَةِ الْكِبارِ وَالْوُزراءِ الْعُظَماءِ .

فرَدُّوا عَلَيْه : وَعَلَيْكَ السَّلامُ يا « شَيْخُ عِزِّ الدِّينِ » .

قَال « الْمُعْتَضِدُ » أَهْلاً وَمَرْحَبًا .. ماذا وَراءَكَ من الأَخْبارِ ، وَماذا تُرِيدُ مِنَّا ؟

— يا مَوْلانا بِحقِّ انْتِصاراتِكَ فِي حُرُوبِكَ الْعَنِيفَةِ التى خُضْتَها ضِدَّ أَشَدِّ أَعْدائِنا خَطَرًا ، وكُنتَ الْفائِزَ الْمَنْصُورَ دائِمًا ؛ حتى سَمَّاكَ أَهْلُ الاندَلسِ « الْمَلِكَ الشُّجاعَ ؛ وَهَذِهِ الرُّءوسُ الْمُعَلَّقَةُ تَشْهَدُ بِذَلِكَ . . . .

يا مَوْلانا : اسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ وَبِهَذِهِ الانْتِصاراتِ أَنْ تُرِيحَنا مِن « الْفُونْسو » وَتُذْهِبَ خَوْفَنا مِنْه ، وَتُؤَمِّنَ الْبِلادَ من شَرِّهِ فقد صارَتْ فى رُعْبٍ شَدِيدٍ منه ! !

* * *

سَمِعَ « الْمُعْتَضِدُ » ذلك فَأَطْرَقَ ، وَأَخذَ يُفَكِّرُ : ماذا يَقُولُ لهذا الشَّيْخِ ؟ ! إِنَّه لا يَسْتَطيعُ أَن يُحارِبَ « الْفُونْسُو » وإذا قَالَ ذَلِكَ لِلشَّيْخِ ظَنَّ أَنَّهُ جَبانٌ ، وَسوْف يَنْتَشِرُ هذا فى الأَنْدَلُسِ وَيَذِيعُ ، وَيقُولُ النَّاسُ : « الْمُعْتَضِدُ » خائِفٌ مِنَ « الفُونْسُو » ! !

لَقَدْ وَقَعَ فى حيرَةٍ وارْتباكٍ ! ! ثمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقالَ لِوُزَرائِهِ وَقُوَّادِه : أَشِيرُوا علىَّ ، ما رَأْيُكمْ فِيما يَقولُ الشَّيْخُ ؟ !

قالوا : هذا أَمْرٌ خَطِيرٌ يا مَوْلانا ، يَحتاجُ إلى تَفْكيرٍ كَبِيرٍ ! !

قال الْمُعْتَضِدُ : أَىُّ تَفكِيرٍ ! ؟ إِنَّ هذا الطَّاغِيَةَ إن لَمْ يُهاجِمْنا اليومَ فَسَوْفَ يُهاجِمُنا غداً ، فإن لَمْ نَذْهَبْ إِلَيْهِ أَتى هو إلينا .

فقالوا : إِذَن لا مَفرَّ منَ الْحَرْبِ يا مَوْلانا ! !

قال الْمُعْتَضِدُ : أَيُّها الشَّيْخُ ، ذلكَ ما أُفَكِّر فيه ، ولَقَدْ نَذَرْتُ نَفْسِى ونذرْت أَبْنائى لِحَرْبِ الطَّاغِيَةِ ، وَفى مُقَدَّمَتِهِمْ

وَلَدِى الَّذِى عَقدْت عَلَيْهِ أَمَلى « الْمُعْتَمِد » .

* * *

فَرِحَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ ، وَرجعَ إِلَى زُملاَئِهِ الَّذِينَ كانُوا يَنْتَظِرُون عَوْدتهُ ، وَما كادَ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ حَتَّى قالَ :

وَجَدْت مَوْلانا « الْمُعْتَضِدَ » مع قادَتِهِ وَوُزَرائِهِ ، وَهُمْ جَمِيعاً يُفَكِّرُونَ فِيما نُفَكِّرُ فِيهِ ، إِنَّه يَضَعُ الْخُطَّة لِلقَضاء عَلَى الطَّاغِيَةِ ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَسْتَعِدُّ لِمُحارَبَتِهِ فى الْوَقْتِ الْمُناسِبِ . .

فَقالَ وَاحِدٌ مِنَ الْحاضِرِينَ : وَالضَّرِيبَةُ الَّتى يُؤَدِّيها إِلَيْهِ ، أَلا تَدُلُّ عَلَى خُضُوعِنا لهُ ، وَاسْتِسْلامِنا لِطُغْيانِهِ ؟ ! ومع ذلكَ بجمعُها له « الْمُعْتَضِد » .

فَقال الشَّيْخُ : لعلَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَّقِى بها شَرَّهُ ، إِنَّها كَقِطْعَةِ الْعَظْمِ التى نُلْقِيها لِلْكلْبِ فَيَتَلَهَّى بها ، حَتَّى يَتِمَّ اسْتِعْدادُنا لِلْقَضاء عَلَيْهِ ، لَقَدْ نَذَرَ « الْمُعْتَضِدُ » نَفْسَه ، وَنَذَرَ أَعَزَّ أَبْنائِهِ

لِحَرْبِ الطَّاغِيَةِ ! !

* * *

وَمَرَّتِ السُّنُون ، والطَّاغِيَةُ يَزْدادُ ظُلْمًا ، وَأَهْلُ الأَنْدَلُسِ يَزْدادونَ ضِيقًا ، ثُمَّ حَدَثَتْ مُفاجَأَةٌ هَزَّتِ الْقُلوبَ .

مَرِضَ الْمُعْتَضِدُ ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَضُ ، وَعاجَلَهُ الْمَوْتُ ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ وَقالوا : مات الْمُعْتَضِدُ ، فَمَنْ يَحْمِي الاندَلُسَ مِنْ شَرِّ الطَّاغِيةِ ؟ ! وَمَنْ يَقُودُ الْجُيُوشَ الْعَرَبِيَّةَ نَحْوَ النَّصْرِ ؟!

وَلَـكِنْ سَرْعانَ ما اتَّجَهَتْ الْقُلوبُ إلى وَلَدِهِ « الْمُعْتَمِدِ » ، فَالْتَفَّتْ حَوْلَه ، وَهَتَفَتْ بِحَياتِهِ ، وَطالَبَتْهُ بِتَخْلِيص الْبِلادِ مِنَ الطُّغْيانِ .

(٣)

وَرِثَ « الْمُعْتَمِدُ » عَنْ وَالِدِهِ الشَّجاعَةَ وَالْجُرْأَة ، كما وَرِثَ عَنْهُ الإخلاصَ لأصْدِقائِه وَوُزَرائِه ، يَخْتارُهُمْ مِنَ الْعُلَماء وَالْحُكَماء ، وَالأدَباءِ وَالشُّعَراء ، وَكانَ أَحَبَّ وُزَرائِهِ إِلَيْهِ رَفِيقُ صِباهُ « ابْنُ عَمَّارٍ » الَّذِى عُرِفَ بِالشَّجاعَةِ وَحُسْنِ الْحِيلَةِ ، فَأَحَبَّهُ الْمُعْتَمِدُ وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ .

وَمُنْذُ أَنْ عَلِمَ « الْفُونْسُو » بِمَوْتِ الْمُعْتَضِدِ — وهو مع قادَةِ جُنْدِهِ يَتَشاوَرُونَ وَيُدَبِّرُونَ ، وَأَخِيراً اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَنْتَهِزوا هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، فَيُهاجِمُوا الْعَرَبَ قَبْلَ أَنْ يُفِيقوا مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ ، وَقَبْل أَنْ يَتَمَكَّن الْمُعْتَمِدُ مِنْ جَمْعِ الْمُلوكِ والمسلمينَ مِنْ حَوْلِه .

* * *

وَبَيْنَما الْمُعْتَمِد جالِسٌ — فَإِذا الاخْبارُ تَأتيهِ بِأَنَّ الطَّاغِيَة قَدْ كَوَّنَ جَيْشًا كَبِيرًا فِيهِ مِنَ الْجُنُودِ وَالْخُيولِ وَأَنْواعِ الأَسْلِحَةِ ما لا يَسْتَطِيعُ الْمُعْتَمِدُ أَن يَصْمُدَ أمامهُ ، وقَدْ تَحَرَّكَ هَذا الْجَيْشُ

الضَّخْمُ نَحْوَ « إِشْبِيلِيَّة » عاصِمة مُلْكِ « الْمُعْتَمِدِ » فَأَخَذَ هذا الْمَلِك الشُّجاعُ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِملاقاةِ هذا الْجَيْشِ الْكبيرِ ، فَوَقَفَتْ جُنُودُهُ عَلَى حُدُودِ الْعاصِمةِ فِى شَجَاعَةٍ وَقُوَّةٍ اسْتِعْدادًا لِمَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ !! لَقَدْ صمموا عَلَى أَن يَموتوا جَمِيعًا !!

* * *

وَاقْتَرَبَ جَيْشُ الطَّاغِيَةِ « الْفُونْسُو » وَعسْكَرَ بِالْقُرْبِ مِنْ « إِشْبِيلِيَّةَ » .

وَنَظَرَ الْمُعْتَمِدُ فَوَجَدَ أَنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى جَيْشِ الطَّاغِيَةِ ، وَأَنَّه سَوْفَ يَخْسر الْمَعْرَكَةَ ، فَماذا يَصْنَعُ ؟ أَيُسَلِّمُ بَلَدَهُ لِعَدُوِّهِ ؟ أَو يُحَارِبُ حَتَّى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ ؟

إِنَّهُ سَيَخْسَرُ فى كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ ، وَتَسقُطُ « إِشْبِيلِيَّةُ » وَيَدْخُلُ أَعْدَاؤُهُ فى شَوَارِعِهَا وَيَنْتَهِكُونَ حُرْمَةَ مَسَاجِدِهَا ، وَيُذِلُّونَ رِجَالَهَا ، وَيَأْسِرُونَ نساءها ، ويُشِيعونَ الْقَتْلَ وَالنَّهْبَ والدَّمار ! !

وَفى ذلِكَ الْوَقْتِ دخَلَ عليْهِ صديقُهُ وَقائِدُهُ « ابنُ عَمَّارٍ » وَقال بَعْدَ أَن حَيَّاه :

نَحْنُ فى انْتِظارِ أَوامِرِ مَوْلانَا الْمَلِكِ .

— فَيَرُدُّ الْمُعْتَمِدُ : لَيْسَ أَمامَنا إِلَّا الْحِيلَةُ وَالْخِداعُ يابن عَمَّار فَإِنِّى أُشْفِقُ عَلَيْكَ ، وَعَلَى جُنودِ « إِشْبِيلِيَّةَ » مِنْ قِتالِ الطَّاغِيَةِ وَجُنودِهِ ! !

— يا مَوْلاى : الْمَوْتُ فى عِزَّةٍ خَيْرٌ مِنَ الْعَيْشِ فِى ذِلَّةٍ ! !

— أَنا مُطْمَئِنٌّ إِلى شَجاعَتِكَ وَبَسالَتِكَ وَشَجاعَةِ جُنودِنا الأَبْطالِ !!

— إِنَّهُمْ فِى انْتِظارِ أَمْرِكَ يا مَوْلاى ، لِيَنْدَفِعُوا إِلى الْمَعْرَكَةِ وَشِعارُهُمْ : الْمَوْتُ أَوِ النَّصْرُ .

قالَ الْمُعْتَمِدُ : وَلـكِنِّى مَعَ ذَلِكَ أَرَى أَنْ نُخادِعَ ، وَنَحْتالَ حَتَّى نَرُدَّ أَعْداءَنا عَنْ بِلادِنا مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ لا أَضْمَنُ نَتِيجَتَها ! ! مُلُوكُ الأَنْدَلُسِ مُتَفَرِّقُونَ ! ! وَلَوْ اتَّحَدْنا لَـكُنَّا قُوَّةً كَبِيرَةً ،

تَقْضِى عَلَى « الْفُونْسُو » ، وَنُخَلِّصُ الْبِلادِ مِنْ شَرِّهِ ! !

قَالَ ابْنُ عَمَّارٍ : لا أَمَلَ الآنَ فِى وَحْدَةِ هؤُلاء الْمُلُوكِ ! !

فَبَقِىَ أَنْ نَعْتَمِدُ على الله وَعَلَى أَنْفُسِنَا ! !

— يابْنَ عَمَّارٍ لَقَدْ قَالَ تَعالى: « وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ »

هَلْ مِنْ حِيلَةٍ بارِعَةٍ نَرُدُّ بِهَا الْجُيوشَ عَنْ بِلادِنَا . . ! !

— إذا كانَ هَذا هُوَ رَأْى مَوْلاى ، فَعِنْدِى حِيلَة ، أَرْجُو أَن تَنْفَعَ إِنِّى ذاهِبٌ يا مَوْلاىَ إلى مُعَسْكَرِ « الْفُونسو » وَأَطْلُبُ مُقابَلَتَهُ ، فَإِذا تَمَكَّنْتُ مِنْ ذَلِكَ فَسَيَرْجِعُ عَنْ بِلادِنا وَلَنْ يُصِيبَهَا بِسوءٍ إِن شاءَ الله ! !

— إِذْهَبْ إِلَيْهِ واصْنَعْ ما تَراهُ يابْنَ عَمَّارٍ ، فَإِنَّ حُسْنَ حِيلَتِكَ وَقُوَّةَ عَقلِكَ أَقْوَى مِنَ الْجُيُوشِ ، وَأَشَدُّ خَطَرًا على الأَعْداء مِنَ الْجُنْدِ وَالسلاحِ .

فَكَّرَ ابْنُ عَمَّارٍ قَلِيلاً وَقَال :

— هَلَّا تَفَضَّل مَوْلاى فَأَعْطانِى الشِّطرنجَ الَّذِى أَهْداهُ إِلَيْك عُمَّال بلادِك ؟

— وَماذا تُرِيدُ به ؟ عَجَبًا لك أَيها الوزِيرُ .

— سَأَحْمِلُهُ مَعِى عِنْدَ ذَهابِى إِلَى « الْفُونْسُو » فَأَنا أَعْلَمُ مِقْدارَ حُبِّهِ الشَّدِيدَ لِهذِهِ اللُّعْبَةِ .

فابْتَسَمَ الْمُعْتَمِدُ وَقالَ : نَحْنُ نُحارِبُ ، وَأَنْتَ تُلاعِبُ يابْنَ عَمَّار ، اصْنَعْ مَا يَحْلُو لك ، فَإِنَّ لَكَ مُفاجَآتٍ وَأَعاجِيبَ ، الشِّطْرنْجُ الْمُذَهَّبُ تَحْتَ تَصَرُّفِكَ .

— أَرْجو أَنْ تَنْجَحَ حِيلَتِى يا مَوْلاى ! !

* * *

فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّباحُ ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ زاهِيَةً رائِعَةَ الجَمَالِ ، حَمَل ابْنُ عَمَّارٍ الشِّطْرنجَ مَعهُ وَتَوَجَّهَ حَيْثُ يُعَسْكِرُ جَيْشُ الطّاغِيَةِ ، فَاعْتَرَضَ طَرِيقَهُ بَعْضُ جُنودِهِ ، فَلَمَّا أَنْ تَقَدَّمُوا . نَحْوَهُ حَتَّى

تَصَايَحُوا : ابنُ عَمَّار ، ابنُ عَمَّار ، قَائِدُ الْمُعْتَمِدِ - وكَانَتْ لابْنِ عَمَّارٍ شُهْرَةٌ كَبِيرَةٌ فِي الأَنْدَلُسِ - وَتَهَامَسُوا :

لَعَلَّهُ يَحْمِلُ هَدِيَّةً لِمَلِكِنَا « الْفُونْسو » لَعَلَّهُ يُعْلِنُ تَسْلِيم « إِشْبِيلِيَّةَ » .

وَسَارُوا مَعَهُ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الطَّاغِيَةِ ، وَقَالُوا :

— يَا أَمِيرَ الأَنْدَلُسِ هذا هُوَ ابْنُ عَمَّارٍ . .

فَنَهَضَ « الْفُونْسُو » وَاقِفًا وَبَسَطَ ذِرَاعَيْهِ وَقَالَ :

أَهْلًا بِكَ وَمَرْحَبًا يَابْنَ عَمَّارٍ ، أَهْلًا بِرَجُلِ جَزِيرَةِ الأَنْدَلُسِ ، مَرْحَبًا بِأَعْظَمِ الرِّجَالِ !

قَالَ ابنُ عَمَّارٍ : مَرْحَبًا بِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ : وَشُكْرًا لَكَ ، وَلَكِنِّي لَسْتُ رَجُلَ الْجَزِيرَةِ ولا أَعْظَمَ الرِّجَالِ ، إِنَّ رَجُلَ الْجَزِيرَةِ ، وَعَظِيمَهَا هو مَوْلَايَ الْمُعْتَمِدُ ، الرَّجُلُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلَ لَهُ أَلْفَ حِسَابٍ ، وَأَنْ تُرَاجِعَ نَفْسَكَ إِذَا حَدَّثَتْكَ

بِالْهُجُومِ عَلَى عَاصِمَةِ مُلْكِهِ ! !

فقَالَ « الْفُونْسُو » عَجَبًا لكَ يابنَ عَمَّارٍ ، نَحْنُ نُلَاطِفكَ ، وَأَنْتَ تُهَدِّدُنَا ، خَيْرٌ لَكَ وَلِلْمُعْتَمِدِ أَنْ تُسَلِّمُوا لنَا الْبِلَادَ طَائِعِينَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُسَلِّمُوهَا مُكْرَهِينَ ، يابن عَمَّارٍ أَوَدُّ أَنْ تَكونَ مَعَنا ، وَلَكَ عِنْدِى مُكَافَأَةٌ ثَمِينَةٌ .

— شُكْرًا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ ، وَلَكِنْ مَا قِيمَتِى بِجِوَارِ مَوْلَاىَ الْمُعْتَمِدِ الَّذِى نَهَضَ بِالْبِلَادِ فَأَحَبَّهُ شَعْبُهُ ، مَوْلَاى الْمُعْتَمِدُ بَنَى نَفْسَه وَمُلْكَهُ عَلَى عَقِيدَةٍ راسِخَةٍ ، وَعِلْمٍ مُتَقَدِّم ، فَهُو — بِفَضْلِ إِيمَانِهِ وَعِلْمِهِ — فى حِصْنٍ مَنِيعٍ لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقْتَحِمَهُ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُ .

أُنْظُرْ أَيُّهَا الْمَلِكُ هذا الشَّطْرنْجَ لِتَرَى بَرَاعَةَ الْمُهَنْدِسِينَ فِى دَوْلَةِ الْمُعْتَمِدِ .

وَبَسَطَهُ أَمَامَهُ ، وَعَرَضَ عَسَاكِرَهُ . فَنَظَرَ « الْفُونْسُو » ،

وَقَالَ — فِي دَهْشَةٍ — رُقْعَةُ الشَّطْرَنجِ !! مَصْنُوعَةٌ مِنْ خَشَبِ الصَّنْدَلِ !! وَقَدْ طُعِّمَتْ بِالْعَاجِ فِي رَوْعَةٍ وَجَمالٍ !! وَعَسَاكِرُهَا قَدْ طُعِّمَتْ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ !! مَا أَجْمَلَ هذا الشَّطْرَنجَ أَشْهَدُ أَنَّ عَيْنِي لَمْ تَرَ مِثْلَهُ !!

هَلَّا لَعِبْتَ مَعِي يابن عَمَّارٍ حَتَّى أَتَمَتَّعَ بِاللَّعِبِ بِهَذِهِ التُّحْفَةِ الرَّائِعَةِ ؟ !

فَقَالَ ابْنُ عَمَّارٍ . لك ذَلِكَ وَلَكِن بِشَرْط .

— وَما هُوَ الشَّرْطُ ؟

— إِنْ غَلَبْتَنِي فَهَذَا الشَّطْرَنجُ لَكَ ، وَإِنْ غَلَبْتُكَ نَفَّذْتَ لِي ما أُرِيدُ مِنكَ .

— وَماذا تُرِيدُ يابنَ عَمَّارٍ ؟ أَخْبِرْنِي أَوَّلا . .

— لَنْ أُخْبِرَكَ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ الْمُباراةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ .

وَهُنا قَالَ وَاحِدٌ مِنْ حَاشِيَةِ « أَلْفُونسو » : لَنْ يَطْلُبَ ابْنُ

عَمَّارٍ شَيْئًا لا يَسْتَطِيعُ مَوْلاناَ أَنْ يَصْنَعَهُ ، فَأَنْتَ الْبَطَلُ الْعَظِيمُ الَّذِى لا يَعْجِزُ عَنْ صُنْعِ ما يرِيدُ .

وَتَبَارَى ألْفُونْسُو ، وَابْنُ عَمّار ، فَغَلَبَهُ ابْنُ عَمَّارٍ ، وَكانَتْ دهْشَةُ ألْفُونْسُو كَبِيرَةً بِبَرَاعَتِهِ الْفائِقَةِ فِى اللَّعِبِ ، وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ فِى تحْرِيكِ عَساكِرِهِ ، فَأَوْجَسَ مِنْهُ خِيفَةً وَقالَ فِى نَفْسِهِ : إذا كانَ أَهْلُ « إشْبِيلِيَّةَ » بِهَذِهِ الْبَرَاعَةِ فِى تَحْرِيكِ جُنُودِهِمْ ، وَالْهُجُومِ بِها عَلَى جُنُودِنا فما أَصْعَبَ مُهِمَّتِى ! !

وَهُنا يَتَّجِهُ إِلَى ابْنِ عَمَّارٍ قائِلا : الآنَ وَقَدِ انْتَصَرْتَ عَلَىَّ فماذا تُرِيدُ مِنِّى ؟

أرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ هذا الْعامَ فَلا تُهاجِمْ بِلادنا ، وَتأَكَّدْ أَنِّى طَلَبْت ذَلِكَ لِحُبِّى لَكَ وَحِرْصِى عَلَى سَلامَتِكَ ، وَهَذا أَوَّلُ الْوَفاءِ لَكَ .

— هذا شَىْءٌ عَسِيرٌ عَلَيْنا . . أأَرْجِعُ دونَ أَنْ أحارِبَ

ابن عمار والفونسو يلعبان الشطرنج

الْمُعْتَمِدَ ، وَقَدْ عَلِمَ مُلُوكُ الأَنْدَلُسِ جَمِيعاً أَنِّي خَرَجْتُ لِحَرْبِهِ ؟ !

أَيَقُولُونَ خَافَ الْفُونسو مِنَ الْمُعْتَمِدِ ؟ ! لا . لا . لَابُدَّ مِنَ الْحَرْبِ .

— أَتَرْجِعُ فِي كلامِكَ . . وَأَنْتَ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ ؟ !

وَقَالَ كَبِيرُ وُزَرائِهِ : يَا مَوْلاى : الْمُلوكُ لا يَرْجِعُونَ فِي وُعُودِهِمْ وَقَدْ وَعَدْتَ ، فَلا تُخْلِفْ وَعْدَكَ ! ! وَنستَطِيعُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ رَأْيِ مَوْلانَا وَرأْيِ ابْنِ عَمَّارٍ ، إِذا تَعَهَّدَ ابْنُ عَمَّار أَنْ يُقَدِّمَ لنَا الضَّرِيبَةَ مُضاعَفَةً هذا الْعامَ ، فِي مُقَابِلِ مُسالَمَتِنَا لِمَوْلاهُ الْمُعْتَمِدِ ، وَعِنْدما يَتَعَهَّدُ ابْنُ عَمَّارٍ بِذَلِكَ ، وَيَكْتُبُ لنَا الْعَهْدَ بِخَطِّ يَدِهِ ، نَتَنَازَلُ عَنِ الْحَرْبِ هذا العَامِ . . وَنَحْفَظُ قَدْرَ أَمِيرِ الأَنْدَلُسِ مَوْلانَا ألْفُونسو الْعَظِيمُ .

وَأَنتَ يابْن عَمَّار سوْفَ نُكافِئُكَ إِنْ وَضَعْتَ يَدَكَ فِي أَيْدِينا . .

قَالَ ابْن عَمَّارٍ : لَكُمْ ذَلِكَ .

وَتَعهَّدَ ابْن عَمَّارٍ بِتَقْدِيمِ الضَّرائِبِ مُضاعَفَةً لِلْفُونسو ، وَأَعْلنَ الْفونسو ذلِكَ فِي بِلادِ الأنْدَلُسِ ، وَطَوى خِيامَهُ ، وَحَملها عَلَى جِيادِهِ ، وفَكَّ الحِصارَ عَنْ « إشْبِيلِيَّةَ » وَارْتَحَلَ هو وَجُنودُه ، وعَلِمَ بذلكَ أَهْلُ إشْبِيلِيَّةَ ، فذَهبَ خَوْفُهُمْ ، وَقالُوا : حَيَّاكَ اللهُ يَابْنَ عَمَّارٍ .

وَرَجعَ ابْنُ عَمَّارٍ إلى مَوْلاهُ الْمُعْتمِدِ وَحَكَى له ما حَدثَ ، فَعَانَقَهُ وَقَبَّلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقالَ : دَامَتْ مَوَدَّتكَ وَ بَرَاعَةُ حِيلَتكَ يابْنَ عَمَّارٍ . . ! !

(٤)

ثمَّ أخذَ المعتمدُ يُفكِّرُ وقالَ وكأنَّهُ يُحدِّثُ نفسَهُ : كَيْفَ يَقْضِي عَلَى الْفونسو ؟ ثمَّ وجَدَ نفسهُ يتحدَّثُ بِصوْتٍ مُرْتفِعٍ : الْوَحْدَة . الْوَحْدَة لِنَقْضِي عَلَى عَدُوِّنا . الْوَحْدَةَ ، وَجَمْعَ الْكلِمَةِ ، حَتَّى نَستَطِيعَ الْقَضاءَ عَلَى الْفونسو قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَينا : دَوْلَةً بَعْدَ دَوْلَةٍ .

وَبعَثَ بِرُسُلِهِ إِلَى الملوكِ يَدْعوهم إلى التَّجَمُّعِ . . . ثمَّ عادتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ لِتُخْبِرَهُ أَنَّ بَعْضَ هَؤُلاءِ المُلوكِ قَدِ اسْتَجَابَ لهُ ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : لاطاقَةَ لنا بِحَرْبِ الْفونسو ، وَلَوْ شَعَرَ الْفونسو أَنَّنا نُرِيدُ أَنْ نُساعِد المعتمدِ فإنَّه سَوْفَ يُسْرِعُ إِلَينا لِيَهْدِم عَلَيْنا دِيارَنا .

* * *

وَلَمْ تَمْضِ غَيرُ شُهورٍ قَلِيلةٍ حَتى جاءَ رُسلُ الْفونسو إِلى المعتمد يَطْلُبونَ الضَّرائِبَ ، وكانَ عَلَى رَأْسِهِمْ يَهُودِيٌّ اسْمهُ « شالِيب » ،

وَيجْمَع المعتمدُ وُزَراءه وَيقولُ : أَشِيروا عَلَيَّ . . ماذا أَصْنَعُ ؟

فَيَقُولُ ابنُ عمَّار : أَرَى أَن نُقَدِّمَ لَهُمْ بَعْضَ ما يَطْلبونَ حَتَّى يَرْجِعُوا عَنَّا هَذا العامَ وَحَتَّى نَتَمكَّن مِن جَمْعِ كَلِمَتِنا .

وَقالَ وَزيرٌ آخرُ : كيفَ هذا يا مَوْلاىَ ! ! نُعْطِيهِمْ أَمْوالَنا لِيَشْتروا بِها العُدَّةَ وَالسِّلاحَ وَيُحارِبونا بِها ؟

فَيَقُول المعتمدُ : الرَّأْىُ ما قالَ ابنُ عَمَّار .

* * *

وَيَبْعَث بِمقدارٍ مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ إلى رُسُلِ الطَّاغِيَةِ ، فَيَضَعُهُ « شاليبُ » اليَهودِىُّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيُقَلِّبُهُ وَيَقُولُ :

ذَهَبٌ مغشوشٌ ، دَنانيرُ لَن نَقْبَلها ، نُقُود لا نُرِيدُها . لا نُرِيدها . . بلِّغُوا المعتمدَ أَنَّ مَوْلاناَ الْفُونسو لا يُرِيد مالاً ، وَلـكنَّه يُرِيدُ بِلادًا وَحُصونًا .

* * *

وَيَصِلُ هذا الكلامُ إلَى المعتمد، فَيَأمُر بالقَبْضِ عَلَى « شاليبَ » وَإخْوَانِهِ، وَيَأتى شاليبُ إلَى قَصْرِ المعتمدِ، وَيَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا تَأدَّبَ وَلا خَضَعَ، وَلـكِنَّهُ تمادَى فى تَهْدِيدِهِ، وَقَالَ :

أَمِيرُنا الْفُونسو لا يُرِيدُ ذَهَبًا وَلا فِضَّةً، وَلـكِنَّهُ يُرِيدُ بلادًا وحُصونًا ! ! إنَّهُ يُرِيدُ أَنْ تُسَلِّمَ البِلادَ إلَيْهِ .

فَغَضِبَ المعتمدُ، وَوَقَفَ بَعْدَ أَنْ كانَ جالِسًا وَقال : أَيُّها اليهودِىُّ لقدْ تجاوَزْتَ حدَّ الأدَبِ وَتمادَيْتَ فى غَطْرَسَتِكَ وَهَوَى عَلَى رَأْسِهِ بِقِطْعَةٍ مِنَ الحَدِيد فَوَقَعَ اليَهُودِىُّ قَتِيلاً، ثمَّ الْتَفَتَ إلى بَقِيَّةِ رُسُلِ الْفونسو وَقالَ :

أَمَّا هؤلاء فَاذْهَبوا بِهِمْ إلَى السِّجْن، وَلَن أُطْلِقَ سَرَاحَهم حَتَّى يُقَدِّمَ طَاغِيَتُهم الْفِدْية لَنا، ولَنْ أَقبلها مِنه ذَهَبًا ولا فِضةً، ولا دِينارًا وَدِرْهَمًا، وَلـكِنِّى أُرِيدُ بِلادًا وحصونًا أَسْتَوْلَى عَلَيها بِظُلْمِهِ وطُغْيانِه ! !

المعتمد يضرب شاليب اليهودى ويرديه قتيلا وسط حاشيته

وَيَعْلَمُ ٱلْفُونسو ذَلِكَ فَيَصْرُخ ويقولُ : لقد خَدَعنا ابنُ عمَّار أَعْطوا لِلْمُعْتَمِدِ ما يُرِيدُ حَتَّى يعودَ رُسُلُنا إِلَيْنا سالمينَ ، وَنادَى فِي جُنُودِه : اسْتَعِدُّوا لِلانْتِقامِ ، اسْتَعِدُّوا لِلثأرِ الْعَظِيم .

* * *

وَيَصِلُ هَذا الْوَعِيد إلى آذانِ المعتمدِ ، فَيَجْمَع مجلسَ الْحَرْبِ وَيَقُولُ :

ماذا نَفْعَلُ ! ! « الفونسو » يُهَدِّدُنا ؟ ! وَهُو عَمَّا قَرِيبٍ زَاحِفٌ لِيَنْتَقِمَ مِنَّا شَرَّ انْتِقَامٍ .

فَيَقِفُ أَحَدُ قادَتِهِ وَيَقُولُ : أَرَى يا مَوْلَاىَ أَنْ نَسْتَعِين بِإِخْوَانِنَا فى إِفْرِيقْيَا وَبِلادِ الْمَغْرِب ، فَعَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَّا القائدُ الْبَطَلُ الْعَظِيمُ « يوسفُ بنُ تَاشْفِينَ » زَعِيمُ الملثَّمِين — وَلا يَفْصِله عَنْ بِلادِنا إِلَّا بَحْرٌ ضَيِّقٌ مِنَ السَّهْلِ أَنْ يَعْبُرَ إِلَيْنا بِجُنُودِه الأَقْوِياء ، وَيَسْحَقَ هٰؤُلاء الطغاةَ الْجَبَّارِينَ .

وَهُنا يَقُولُ وَاحِدٌ مِنْ وُزَرائِهِ : إذا جَاء الْمُلَثَّمونَ وَرَأَوْا مَافِي بِلادِنا مِنْ جَمَالٍ ، فَلَنْ يَخْرُجُوا مِنهَا ، وَسَوْفَ يُشارِكُونَ مَوْلانَا الْمُعْتَمِدَ فى إدارَةِ الأنْدَلسِ وَحكْمِها .

فَرَدَّ المعتمدُ : لِيكُنْ هَذا ، فَلأَنْ يَأخُذَ « يوسُفُ ابن تاشْفِينَ » الْمَلِكُ الْمُسْلِمُ بِلادَنا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْتَوْلى عَلَيها الطَّاغِيَةُ الكافِرُ الْفونسو وَجُنُودُه !!

* * *

(٥)

وَعَبَرَتْ وُفودُ المعتمدِ إلَى بِلادِ المغْربِ ، واسْتَنْجَدوا بيوسفَ ابن تاشفينَ كمَا عَبرَ إليْهِ عَدَدٌ مِنْ شُيوخِ الأَنْدَلسِ وَفُقهَائِهَا ، واسْتَغاثُوا بهِ وَقَالُوا لَهُ :

أَدْرِكْ إخوانَكَ المسْلِمينَ بِالأَنْدَلسِ ، فَعَدُوُّهم « الْفُونسو » يَكادُ يَقْضِى عَلَيْهِمْ ، وَقَد تَوَعَّدَ المعتمدَ ، وَسَوْفَ يُهاجِمُ بِلادَه عَمَّا قَريبٍ ، وَأَمَلُنَا فِيكَ كَبِيرٌ « يابْن تاشفينَ » ! !

— لَبَّيْكُمْ يَا أَهْلَ الانْدَلسِ ، فالدِّفَاعُ عَنْكمْ وَاجِبٌ يَفْرِضُهُ عَلَيَّ مَا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ مِنْ رَوَابِطَ اللُّغةِ وَالدِّين .

* * *

وَتَحَرَّكَ جَيْشٌ كَبِيرٌ ، بِقِيادَةِ « ابنِ تَاشفِينَ » وَخَاضَ غِمارَ الْبَحْرِ إلى الأَنْدَلسِ ، فَمَا أَنْ عَبَرَ الْبَحْر ، وَنَزَلَ عَلَى أَرْضِ الأَنْدَلسِ حَتَّى اسْتَقْبَلَهُ المسْلِمونَ يُهلِّلونَ وَيُكَبِّرونَ : اللهُ أَكْبَرُ ، عِشْتَ

وَعاشتْ جُنودُكَ يابْن تاشْفِين ، النَّصْر لَنا ، وَالهزِيمةُ لِلْمُعْتَدِينَ .

* * *

وَعَلِمَ « الفونسو » بِقدومِ الجَيْشِ الأَفْرِيقِيِّ ، فَأَسْرَعَ لمقَابَلَتِهِ وَنَزَلَ بجنودِه فى مَكانٍ فَسيح يُسَمَّى « الزَّلَّاقَة » .

وَعَلِمَ يوسفُ ابنُ تاشفِين بِذلِكَ فَتَوَجَّه إِلَيْهِ ، وَنَزَلَ بِجنودِه قَرِيباً مِنْهُ وَكَتَب إِلَيْهِ :

« أَيُّها الطَّاغِيَةُ : إِمَّا أَنْ تُسْلِم فَتَشْهَد أَنَّ لا إِلَهَ إلا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ ، وَإِماَّ أَن تُخَلِّى الْبِلَاد وَالْحُصُونَ الَّتِي أَخَذْتهَا مِن مُلوكِ الْمُسْلِمِينَ فَإِن لَمْ تَفْعَل هَذا أَو ذَاكَ فَارْتَقِب حرْبًا عَنِيفةً يُعْلِنُها عَلَيْـــكَ أَبْطَالٌ مِنْ إِفريقيا ، وأَبطَالٌ مِنَ مِنَ الأَندَلسِ ، وَهُمْ جَميعاً يُحِبُّونَ الموتَ ، كمَا يُحِبُّ جُنودُكَ الْحَياةَ » ! !

* * *

فَرَدَّ عليهِ الفونسو ساخِرًا بِأَهْلِ الأَنْدَلُسِ وَ بِجُنودِ ابن تاشِفِينَ وَقَال :

« يابْنَ تاشِفِينَ الْحَرْبَ .. الْحَرْبَ .. حَتَّى أُنْزِلَ بِكَ الْعِقَابَ ، فَكَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى المجيء إِلَى بِلادِى ! ! سَأُعْطِيكَ دَرْساً لَنْ تَنْساه فَمَعِى جُنودٌ أَقْوِيَاء أَسْتَطِيعُ بهم أَنْ أُقَاتِلَ الإنسَ وَالْجِنَّ وَمَلائِكَةَ السَّماء » .

* * *

فلَمَّا وَصَلَتْ رِسالَة « الفونسو » إِلَى « ابْنِ تَاشِفِينَ » رَدَّها إِلَيْهِ بَعْدَ أَن كَتَبَ عَلَى ظَهْرِهَا :

« الَّذِى يكونُ سَتَرَاهُ » .

* * *

وَأَتَتْ إِلَى « الزَّلاقةِ » الْجُيوشُ الأَنْدَلُسِيَّةُ يَقودُها « المعتمدُ » وَقَرِيبٌ مِنْها عَسْكَرَ جَيْشُ الملثَّمِين بِقيادَة « يُوسُف بن تاشِفين »

وما أنْ وَصَلَتِ الرِّسَالَةُ إلَى الطَّاغِيَةِ حَتَّى أقْبَلَ بِجَيْشٍ كَبِيرٍ يَزْحَفُ بِالْخَيْلِ ، وَيَمُوجُ بالرِّجالِ ، فَأسْرَعَ إليهِ الْجَيْشُ الأندلُسِيُّ ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِ « المعتمدُ » وَقَدْ رَكِبَ فرسَه ، وَلَوَّحَ بِسَيْفِهِ وَنَادَى بِأعْلَى صَوْتِهِ : « اليومَ يومُ النَّصر ، اليومَ يَوْمُ الفِداء ، يا أهْلَ الأنْدَلس اهْجُمُوا عَلَى أعْدائِكم ، واحْموا أوْطانكم ، وَاحْرِصُوا عَلَى الموْتِ تُوهَبْ لَكُمُ الحياةُ » .

* * *

وكانت مَعْرَكَةٌ عَنِيفَةٌ : المعتمدُ يُهاجِم أعْداءه ، وأصْحَابُهُ مِنْ حَوْلِهِ صَامِدُونَ ، وأعْداؤه يُهاجِمونَه فِي عُنْفٍ وَشِدَّةٍ ، وهُو ثابِتٌ فِي مكانِه لا يَتَزَعْزَعُ ، وَقُتِلَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أصْحَابِه ، وَتَسَاقَطُوا حَوْلَهُ فَلَمْ يَتَراجَـــعْ . . حتَّى تكَسَّر سَيْفُهُ ، وَماتَ فَرَسُه ؛ فاسْتَلَّ سَيْفاً آخَرَ وَرَكِبَ فَرَساً ثانياً ، وَاسْتأنَفَ الهجُومَ وَالْقِتَالَ .

وَعِنْدَئِذٍ دَقَّت الطُّبولُ ، فَتَحَرَّكَ الْجَيْشُ الإفْرِيقِيُّ ، وَطارت

فِرْقَةٌ مِنْهُ إلى خيامِ الطُّغاةِ فأشْعلُوا فيها النِّيرانَ ، وتَسَلَّلتْ فِرْقَةٌ ثانيةٌ ، وَهَاجَمَت الأعْداءَ مِنَ الخلفِ ، وَزَحَفَ باقى الجَيْشِ فى صفوف مُنْتَظِمةٍ فى أَيْدِيهم السُّيوفُ وَالحِرابُ ، وَالأقْواسُ والسِّهامُ فزُلْزِلَت الأرْضُ وَأَظْلمَ النَّهارُ مِنْ كَثْرَةِ الغُبَارِ ، وكَرَّت خيول المُلَثِّمِينَ ، وهَتَفَتِ الجُيُوشُ الإسلامية كلها : الله أكبرُ ، اِثْبُتْ أَقْدامُنا ، لِنَمتْ فى أَمَاكِننَا ، المَوْتَ . . المَوْت ، الشَّهادَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالوَطَن .

* * *

فإذا الأعْداءُ يَتساقَطون ، وَإذَا خيولُ المسلِمينَ تَدُوس أَجْسامَهم والجيوش الأندَلُسِيَّةُ من أَمامِ ، والجَيشُ المَغْرِبِيُّ مِنْ وَراء . . وَالجميعُ يُنادِى : النَّصْر لَنَا . . ومَلائِكَةُ السَّماءِ مَعَنا .

فإذا الأعْداءُ يُهْزَمونَ ، وَيَفِرُّونَ هَارِبِينَ ، والجُيوشُ الإسلاميةُ تَلْحَقُ بِهِم وَتُشِيعُ فِيهِم القَتْلَ والدَّمَارَ ، فَلَمْ يَنْجُ مِنهم إلاَّ

المعتمد على فرسه يحارب

عددٌ قليلٌ تحتَ ستارٍ منَ الليلِ المظلمِ ! !

* * *

وأشرقتِ الشمسُ زاهيةً رائعةً كأنها تشاركُ المسلمينَ فرحتَهم بالنصرِ المبين .

وبأمرٍ منَ المعتمدِ ويوسفَ بن تاشفينَ : نادَى المنادِى : « تكريماً للإنسانيةِ التى ترْبطُنا بهؤلاءِ المعتدينَ ، اجمعوا جُثثَ قتلاهم ، وادفنُوها فى التُرابِ ، ولا تتْركوها هكذا تأكلُها السباع وتنهشُها الطيُور » .

* * *

وحفرَ المسلمونَ حُفْرةً بعيدةَ الطولِ ، بعيدةَ العرْضِ ، بعيدةَ العُمْقِ ، وجمعُوا الجُثثَ ، وقبلَ أنْ يدْفنوها صعدُوا فوْقها وأذّنُوا : « اللهُ أكبرُ ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . . . »

ثمَّ ألقوْا بها فى الحُفْرةِ وهم يُرددون :

« لا إلهَ إلا اللهُ وحْدَه ، صَدَق وعْدَه ، وأعَزَّ جندَه ، وهَزَمَ الطُّغاةَ وحْدَه . . . »

* * *

أمَّا المسلمونَ فَقَدْ اسْتُشْهِدَ مِنْهُم كثيرٌ ، وكلُّ واحِدٍ مِنْهُم — يا بُنَيَّ — يَسْتَحِقُّ أن تُكْتَبَ لَهُ قِصَّةٌ . . ! !

وكانَ مِنْ بَيْنِ الشُّهَداء « الشَّيْخُ عزُّ الدِّين . . وَجَدُوه بينَ القَتْلى يَلْفِظُ أنفاسَهُ الأخيرَةَ ، وَقَدْ احْتَضَنَ سَيْفَه . . وقالَ :

بِسَيْفِي هَذَا قَتَلْتُ عَشَرَةً مِنْ أعداء المسلمينَ ! !

هذَا تَأويلُ رُؤْيَايَ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا ! !

الآنَ أُغْمِضُ جفنى وأنا مُطْمَئِنٌ . ثُمَّ قالَ :

— هَلْ مَاتَ الطَّاغِيَةِ ؟

فقالوا : لا . . قَدْ هَرَبَ مُثْخَنًا بِجِرَاحٍ عَمِيقةٍ ! !

فقال : والمعتمدُ ؟ !

فقالوا : سَلَّمَهُ اللهُ إلا مِنْ جِرَاحٍ غَيْرِ عَمِيقةٍ فى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ .

قال : والْبَطَلُ الْعَظِيمُ يوسُف بن تاشِفين ؟ !

قالوا : بخيرٍ . . لم يُصَبْ بِسوءٍ .

فقَال الشَّيْخُ عزُّ الدِّين ـ وهو يُغْمِضُ جَفْنَيْهِ ـ : « الحمد لله ! ! يَنْصُرَ اللهُ دَولةَ المسلمين » .

رقم الايداع بدار الكتب ٤١٧٨ لسنة ١٩٧٥

مطبعة دار العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر ـ القاهرة
تليفون ٩٠٦٧٠٦